

سلسلة بحوث وتحقيقات مختارة من مجلة الحكمة (12)

القواعد العلمية في النقد عند شيخ الإسلام ابن تيمية

بقلم : عبدالله بن محمد الحياي

قام بنشره

أبو مهند النجدي

Almodhe1405@hotmail.com

almodhe@yahoo.com

المقدمة

الحمد لله وكفي وسلام علي عبده المصطفى ، وبعد :

فهذه رسالة وجيزة توخيت من خلالها عرضاً علمياً لمنهج شيخ الإسلام ابن تيمية في النقد والحكم على الآخرين وبيان القواعد الأساسية التي ينبني عليها النقد العلمي البناء ، استوحيت ذلك من خلال إطلاعي المستمر لكتب شيخ الإسلام ومصنفاته .

والذي دفعني إلى الكتابة في مثل هذا الموضوع الخطير مع قلة بضاعتي فيه أي رأيت كثيراً ممن يتصدى في نقد الناس يغلب عليه الجانب العاطفي في تقويم الآخرين ، ودون أن يحكم بميزان الكتاب والسنة وقواعد هذا العلم، فيكثر منه صدور الأحكام الخاطئة دون أن يتحرى المنهج السليم في النقد ، والسبب الثاني الذي دفعني إلي الكتابة في هذا الموضوع، أنني لم أر جمع قواعد هذا الفن في مصنف مستقل . وإنما هو مثبت في القرآن العزيز والسنة المطهرة وكلام السلف . وفي بطون الكتب والمؤلفات .
والذي قمت به إنما هو جمع الكلام، وترتيبه علي نسق واحد وفي مكان واحد ، ليسهل علي طلبة العلم الرجوع إليه والانتفاع منه .

وإنما اخترت شيخ الإسلام دون غيره، سببين رئيسيين:

أولهما: لأنه أول من قعد منهج أهل السنة والجماعة، وأبرز من أهتم بها ودافع عنها، ورد علي المخالفين خاصة بعد حدوث معتقدات منحرفة ومناهج بدعية بسبب الانحراف عن المنهج الصحيح وثانيهما : أنه متأخر جدا جمع ما لم يجمعه غيره، ويكفي في ذلك شهادة أهل الحديث والفقهاء عنه : ((كان الفقهاء في سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا، ولا يعرف أنه ناظر أحد فانقطع عنه، ولا تكلم في علم من العلوم إلا فاق فيه أهله، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد علي وجهها)) .
وقد قسمت الرسالة إلي خمسة فصول وخاتمة. وأسأل الله عز وجل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، ولا يجعل فيه لأحد شيئاً. وأن يهدينا الصواب والعدل في الحكم علي الناس، إنه ولي التوفيق وصلي الله علي سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتبه

عبد الله بن محمد الحيايالي

الفصل الأول

النقد لغة واصطلاحاً وبيان نشأته عند أهل العلم

النقد لغة: قال أبو الدر داء: ((إن نقدت الناس نقدوك)) أي: عبتهم واغبتتهم، من قولك: نقدت الجوزة أنقدها، ونقد الدرهم، ونقد له الدرهم أي: أعطاه إياه. ما نقدتها: أي قبضتها ونقد الدراهم أي أخرج منها الزيف وبأبها نصر، ودرهم نقد أي وازن: وازن جيد، وناقدت فلاناً إذا ناقشته بالأمر (1)

واصطلاحاً: وصف في الراوي، يثلم عدالته ومر وأته، مما يترتب عليه سقوط كلامه ورده، وهو مرادف لكلمة الجرح عند أهل الحديث من حيث أنه وصف الراوي بصفات تتضمن تضعيف روايته، وعدم قبولها وكلاهما ينقسم إلي مقبول غير مقبول.

مشروعية النقد من الكتاب والسنة :

دلت قواعد الشريعة العامة علي وجوب التأكد من سلامة الناس، والبحث عن أحوالهم عند ورود ما يتطلب ذلك. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات: من الآية 6)، فقد أمر الله المؤمنين أن لا يقبلوا خبر الفاسق؛ لما يجر علي المسلمين من مضرة نتيجة نقله عن بعض المؤمنين أخباراً كاذبة، فعليهم أن يتبينوا من خبره حتى لا يندموا.

قلت: وهذا هو معني النقد عند أهل العلم، وهو ضرورة التأكد مما ينسب إلي الناس من أخبار، والتأكد من صحتها وسلامتها، ونقدها علي موازين ثابتة ؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، ومما سبق يتبين أن النقد هو الذي يقوم علي التأكد مما يضاف إلي الناس، وينقل عنهم رواية ودراية. أما رواية: وذلك بالاحتراز عن الخطأ من نقل ما يضاف من الناس وتمحيص الكلام، وإخراج ما فيه من الزيف والكذب، ودراية: هو معرفة حال الناقد جرحاً وتعديلاً وتحملاً، وأداء وكل ما يتعلق به مما له صلة بنقده.

نشأة هذا العلم:

(1) لسان العرب (14/254)، بتصرف.

نشأ علم النقد والجرح مع نشأة الرواية في الإسلام، إذ كان لابد لمعرفة الأخبار والروايات الصحيحة من سقيمها من معرفة روايتها معرفة تمكن العلماء من الحكم بصدقهم أو كذبهم حتى يتمكنوا فيما بعد من تمييز المقبول من المردود، لذلك سألوا عن الرواة وتتبعوهم في جميع أحوال حياتهم العلمية، وحتى في عقر دارهم . وكانوا يبينون أحوال الرواة وينقدوهم حسبة الله، لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا تستولي عليهم العاطفة، فليس في نقاد الحديث من يجابي في الحديث، فقد قصد الجميع خدمة الشريعة وحفظ مصادرها.

وقد أكد العلماء ضرورة بيان أحوال الرواة، وأن ذلك ليس بغيبية، بل في ذلك حفظ الشريعة وصيانتها من الدخيل الزائف ، واستدلوا بما ثبت في السنة من قول الرسول ρ في الجرح : (بئس أخو العشيرة)، وقوله ρ في التعديل: (نعم عبد الله خالد بن الوليد سيف من سيوف الله)، وقوله ρ في النصيحة: (أما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له)⁽¹⁾ وذلك حين جاءت فاطمة بنت قيس تسأله عن حال الرجلين، كانا قدما لخطبتها، فقال ذلك علي وجه النصيحة لها.

ومن هذا أخذ العلماء جواز ذكر الشخص، وما فيه من المساوي حتى يحذره الناس، وأن هذا ليس من باب الغيبة. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: ((جاء أبو تراب: يا شيخ لا تغب العلماء، فقال له: ويحك هذه نصيحة ليست بغيبة))⁽²⁾.

وكان غاية العلماء المحدثين في هذا بيان الحق بكل أمانة وتجرد، ولولا ضرورة التأكد من أحوال الرواة؛ لما خاضوا في هذا الباب. قال يحيى بن سعيد: ((إنا لنطعن في أقوام لعلمهم قد حطوا رحلهم في الجنة)).

منهج العلماء في بيان أحوال الناس ونقدهم:

لما كان أكثر الأحكام لا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة النقد والرواية، فقد كان كلامهم في الرواية ونقدهم وسيلة لا غاية، فلم يقصدوا الخوض في أعراض الناس، لهذا التزموا الاعتدال في بيان أحوالهم، فلم يتناولوا في ذكر أحوال الرواة غير الجانب الذي يهمهم، وهو الجانب الديني، وقد تميز هذا المنهج في بيان أحوال الرواة بعض القواعد المهمة نجملها فيما يلي:

(1) أصول الحديث، محمد الخطيب: (ص 262).

(2) نفس المصدر: (ص 264).

- 1- الأمانة في الحكم: فكانوا يذكرون للراوي ما له وما عليه وفضائله ومساوئه، يقول محمد بن سيرين: ((ظلمت أخاك إذا ذكرت مساوئه ولم تذكر محاسنه)) .
- 2- الدقة في إعطاء الأحكام: حيث ندرك من تتبع أقوال العلماء دقة بحثهم، ومعرفتهم بجميع أحوال الراوي الذي يتكلمون فيه، وكل ما له صلة بنفده، ثم يصدر عن الحكم المناسب فيه .
- 3- التزام الأدب في النقد: فلم يخرج هؤلاء العلماء في نقدهم وأحكامهم عن آداب البحث العلمي الصحيح، وكانوا مع ذلك يأمرن طلابهم بالترام الأدب في نقدهم، يقول المزني، تلميذ الشافعي . رحمهما الله تعالى: ((سمعني الشافعي يوماً وأنا أقول: ((فلان كذاب))، فقال لي: ((يا إبراهيم: إكس أفاظك أحسنها، ولا تقل كذاب، ولكن قل حديثه ليس بشيء))).⁽¹⁾

(¹) المصدر السابق: (ص267)

الفصل الثاني

التحذير من الوقوع في أعراض العلماء وبيان خطر اللسان

قد يكون من المناسب أن نقف وقفه لا بد منها؛ لننبه إلى خطورة اللسان؛ لأننا قد تمادينا في التساهل بأمر صونه عن الخطأ والزلل.

ومعلوم أن اللسان من أجل النعم. ولو تأمل الإنسان المحروم من هذه النعمة، فإنه عندما يريد التعبير عن نفسه والإفصاح عن شيء، فإنه يستخدم كثيراً من أعضائه. ومع ذلك كله لا يشفي نفسه ولا يبلغ مراده.

فهل حافظنا علي هذه النعمة وسخرناها في نشر الخبر؟!

إن بعض الناس يطلق عليهم عنان لسانه في الوقعة في أعراض الناس، ويغلب علي أحكامه الجوار وعدم العدل، ولو تأمل هذا المسكين ما ورد في النصوص من التحذير من آفة اللسان؛ لتزدد مائة مرة قبل أن يسئل لسانه في الكلام علي الناس بغير حق، قال تعالي: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق: 18)، فإن هناك من يحصي ألفاظك وبعد كلماتك. وفي حديث معاذ الطويل وقول الرسول (وهل يكب الناس علي وجوههم إلا حصائد ألسنتهم) ⁽¹⁾ أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وبين ρ أن من ضمن ما بين لحييه ضمن له الجنة، فقال: (من يضمن لي ما بين لحييه، ضمنت له الجنة) ⁽²⁾

وبين أن الرجل ليلقي الكلمة جزافاً لا ينكر من آثارها وعواقبها، فيسقط، في نار جهنم سبعين خريفاً، فقال: (وإن الرجل ليتكلم الكلمة في سخط الله لا يلقي لها بالاً، وإنها تهوي به في النار سبعين خريفاً) ⁽³⁾

وقد أشار ابن القيم - رحمه الله - إلى قاعدة جليلة عجيبة قل من ينتبه لها في التحذير من آفة اللسان إذ يقول: ((من العجيب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام، والظلم، والربا، والزنا، وشرب الخمر، ومن النظر إلي المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى يري الرجل

(¹) الترمذي: (2616)، ابن ماجة (3973)، أحمد: (231/5)، والحديث حسن .

(²) البخاري

(³) الترمذي: (2314)، وأحمد: (355/2)، والحديث صحيح.

يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمة في سخط الله لا يلقي لها بالاً ينزل بها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم تري من رجل تورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الناس الأحياء والأموات لا يبالي ما يقول))⁽¹⁾

وتزداد خطورة الإثم، ويعظم الذنب، وتكبر المعصية إذا كان الجرح والكلام في علماء الأمة، فهم سادة الأمة، وحراس الشريعة، وسياجها، ونجوم الأرض، فإذا انطفأت أتي الأرض ما توعد، ولا خير في قوم لا يعرفون للعلماء قدرهم ومكانتهم، ولا يعطونهم حقهم من الاحترام والتوقير، وقد قيل: لحوم العلماء مسمومة، وقال ابن عساكر: ((لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك منتقصيهم معلومة، ومن وقع فيهم بالقلب، ابتلاه الله قبل موته بموت قلبه))). فعلي الإنسان المسلم أن يتق الله، ويخشاه، ويراقبه، ويشعر أن الله معه ويتيقن أن الله يسجل حركاته وسكناته وألفاظه، وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويجب عليه أن يترث قبل أن يبدأ بجرح أحد من الناس؛ لكي يكون متزن في حكمه بعيداً عن الظلم.

(¹) تقويم الرجال، أحمد الصوبان: (ص9)

الفصل الثالث

القواعد العلمية التي يعتمد عليها شيخ الإسلام ابن تيمية في تقويم الرجال

أولاً: الكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وعدل لا بجهل وظلم: الأصل في هذه القاعدة الشرعية قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: 8) ،

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: ((أي لا يحملنكم بغض قوم علي ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقاً كان أو عدواً، ولهذا قال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة من الآية 8)، أي: عدلكم هو أقرب للتقوى من تركه))⁽¹⁾.

وهذه الآية الكريمة ترسم منهاجاً عظيماً تجعل فيه العدل من لوازم الإيمان ومقتضياته، وترسم منهاجاً دقيقاً يمثل جمع صور العدل مع القريب والبعيد، وينهي عن جميع صور الظلم مع كل أحد. والعدل به قامت السماوات والأرض، وهو نظام كل شيء، وأساس قيام المجتمعات الإنسانية، قال شيخ الإسلام: ((وأمر الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل، الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تترك فيها، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الإسلام والظلم.

ذلك أن العدل نظام كل شيء، وإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن صاحبها من أهل الدين، من خلاف، ومتي لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان صاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة)). وقال أيضاً: . رحمه الله . في موضع آخر: ((والعدل مما اتفق أهل الأرض علي مدحه وصحته والثناء علي أهله وصحبتهم، والظلم مما اتفقوا علي نبذه وذمه وتقبيحه وذم أهله وبغضهم، والعدل من المعروف الذي أمر الله به، وهو الحكم بما أنزل الله علي محمد ρ ، وهو أكمل أنواع العدل وأحسنها. والحكم به واجب علي النبي ρ ، وعلي من اتبعه، ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر، وهذا واجب علي الأمة في كل ما تنازعت فيه من الأمور الاعتقادية أو العلمية)) أ. هـ

(¹)تفسير ابن كثير: (35/2).

وفي هذا العصر الذي ندر فيه وجود الإنصاف والعدل، يحتاج المسلم إلى الرجوع دائماً إلى منهج أهل السنة والجماعة، الذي هو امتداد لم كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ علماً وعملاً، ليزن الأمور كلها بميزان قويم لا يتأرجح، حيث أصبحت الأهواء الشخصية، والخلفيات الحزبية هي التي تتحكم بالآراء وتقييم الناس في كثير من الأحيان، حيث أنك تجد الإنسان ليغض الطرف عن أخطاء من يجبه، وإن كانت كبيرة ولا يمكن السكوت عليها، وفي المقابل من ذلك تجده إذا أبغض أحداً لهوي نفسه جرده من جميع الفضائل والمحاسن، ولم يظهر إلا سيئاته وينس فضائله في الدين، وخدمته للإسلام، مهما كانت بينه وواضحة علي حد قول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليله
لكن عين السخط تبدي المساويا

وهذا الاضطراب في تقييم الناس يرجع إلى القصور المنهجي، والخلل الفكري، والعقم العقائدي عند هؤلاء القوم، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلى التباغض والتفرق المذموم، في الوقت الذي نحتاج فيه الأمة أن تقف صفاً واحداً ضد من يحاول تقويض بنيانها، وصدع صرحها، وتفريق شملها.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - في بيان سبب نشوء الفتن والاختلاف بين الناس: ((فإن أكثرهم أصحاب المقالات الفاسدة - قد صار لهم هوي في ذلك، أن ينتصر جاههم أو رياستهم، وما ينسب إليهم لا بقصد، وأن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، بل ينصبون علي من خالفهم وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عن يوافقهم وإن يحمداوا من لم يحمده الله ورسوله، ولا يذموا من ذم الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم علي أهواء أنفسهم لا علي دين الله ورسوله ﷺ)).

وقال - رحمه الله - أيضاً: ((ومعلوم أننا إذا تكلمنا فيمن هو دون الصحابة، مثل الملوك المختلفين علي الملك، والعلماء والمشايخ المختلفون في العلم والدين، وجب أن يكون الكلام بعلم وعدل، لا بظلم وجهل، وإن العدل واجب لكل أحد وعلي كل أحد في كل حال، والظلم محرماً مطلقاً لا يباح بحال قط، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: من الآية 8)، وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، فإذا كان البغض الذي أمر الله به

قد نهي صاحبه أن يظلم من أبغضه، فكيف بمن يبغض مسلماً بتأويل وشبهة أو بهوي النفس؟ فهو أحق أن لا يظلم، بل يعدل عليه (1).

ولشيوع هذه الظاهرة المقيتة، وانتشارها بين صفوف من ينتسبون إلى الإسلام، وجب علي المسلم دائماً أن يرجع إلى فهم السلف الصالح، ويزن الأمور كلها بميزان دقيق لا تتحكم فيه الآراء والاجتهادات الشخصية، وأن يعتصم بحبل الله وبالجماعات، ويخلص دينه لله، ولا يتكلم في أحد إلا بعلم وعدل وإنصاف كما أمر الله تعالى.

قال شيخ الإسلام بهذا الصدد: ((والله قد أمر المؤمنين كلهم أن يعتصموا بحبله جميعاً ولا يتركوا، وقد فسر حبله بدينه وكتابه وبالإسلام، وبالإخلاص، وبأمره وطاعته وبالجماعة، وهذه كلها منقولة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان)) (أ. ه. .

وقال في موضع آخر أيضاً من كتابه: ((فالأمور المشتركة بين الأمة لا يحكم فيها إلا الكتاب والسنة، ليس لأحد أن يلزم الناس بقول عالم ولا أمير ولا شيخ ولا ملك اعتقد أنه يحكم بين الناس بشيء من ذلك، ولا يحكم بينهم بالكتاب والسنة، فهو كافر (2) أ. ه. .

من خلال النصوص السابقة يجب أن تعلم: أنه لا يجوز للإنسان أن يتكلم في غيره كائناً من كان إلا بعلم وإنصاف وعدل، وأن من يتكلم في غيره بغير علم وبينه وبرهان، فهو من الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة: من الآية 8).

ولشيخ الإسلام كلام نافع جداً يبين فيه المنهج الصحيح القويم في الحكم علي الآخرين، وتقييم الناس، وخاصة بمن ينسب إلي علم أو دين؛ وذلك إذا أخطأ حتى في مسائل الاعتقاد والإيمان، وسنورد نصه في الفصول القادمة بإذن الله .

ثانياً: التجرد عن الهوي :

إن من أعظم دواعي الهلاك المدموم، وسمي الهوي: هوي؛ لأنه يهوي بالإنسان إلى النار الهاوية. وأضل ضلال ابن آدم هو إتباع الظن والهوي، قال تعالى : ﴿ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَىٰ الْأَنفُسُ ﴾ (لنجم: من الآية 23). ومتبع الهوي لا بد من أن يضل عن سبيل الله سواء كان ذلك عن علم أو عن جهل، فإن

(1) منهاج السنة النبوية: (126/5).

(2) منهاج السنة النبوية: (126/5).

كثيراً مما يترك الإنسان العلم الذي يعلمه اتباعاً لهواه، ولا بد أن يظلم أما بالقول أو الفعل؛ لأن هواه قد عمي بصيرته، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ (الجاثية: من الآية 23). ومتبع الهوي لا بد أن يبدل دين الله ويحرف الكلم عن مواضعه، ولهذا ذم الله اليهود؛ لاتباعهم أهواءهم، حيث قادهم ذلك إلى تبديل شرع الله والكفر بالرسول ρ والاستعاضة عنه بالدنيا وحطامها، قال الله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: من الآية 87).

واتباع الهوي نوع من أنواع الشرك الذي ندد الله بأهله كما قال بعض السلف: شر إله عبد في الأرض الهوى.

فإذا صار الهوي هو القائد للإنسان والدافع له صار أصحابه أحزاباً متفرقة يتعصب كل واحد لرأيه وذوقه، ويعادي من يخالفه في الرأي، ولو كان الحق مع غيره، لأن الحق ليس مراده ومبتغاه، وبهذا ينشب الخلاف والتفرق بين الأمة، ويحصل فيها ما حذر الله منه في كتابه فتذهب ريجها وتفرق كلمتها، وتكون فريسة سهلة لأعدائها.

ومن علامات اتباع الهوي: أنك تجد بعض هؤلاء إذا علم أن فلاناً يخالفه في مسألة من المسائل، فإنه يبادر للرد عليه، وتفنيده رأيه بدون تأمل ويبدل جهده، وما عنده من حيلة لإبطال حجته بكل وسيلة يقدر عليها.

ولذلك كان التجرد عن الهوي من الأسباب التي تجعل الحكم صائباً أو قريباً من الصواب، وقد أوصى الله نبينا داود بالحذر الشديد من اتباع الهوي في الحكم علي الناس، وبيّن أن اتباع الهوي يضل الإنسان عن سبيل الله، ولو كان من كان. فقال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: من الآية 26).

وحين يقع الإنسان في أسر الهوي، فإن الموازين تنقلب وتتغير المفاهيم، فيصبح الحق باطلاً والباطل حقاً بمجرد فساد القلب وانتكاس الفطرة.

وإلى هذه النقطة أشار شيخ الإسلام - رحمه الله - حيث قال: ((ومن المعلوم أن مجرد نفور النافرين أو محبة الموافقين لا يدل علي صحة القول ولا فساده، إلا إذا كان بهدي من الله، بل الاستدلال بذلك الاستدلال بلا اتباع الهوي بغير هدي من الله).

فإن اتباع الإنسان: هو أخذ القول والفعل الذي يجبه ورد القول والفعل الذي يبغضه بلا هدي من الله، قال تعالي: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: من الآية 119).

فمن اتباع أهواء الناس بعد العلم الذي بعث الله به رسوله، وبعد هدي الله الذي بينه في عباده فهو بهذه المثابة، ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع والفرق، بأهل الأهواء المخالفين للكتاب والسنة، حيث قبلوا ما أحبوه وردوا ما أبغضوه، بأهوائهم بغير هدي من الله .

قلت: ولهذا حذر السلف رضى الله عنهم من مجالسة أهل الأهواء والبدع، وأمروا بهجرهم، وعدم الرواية عنه ؛ لأنهم يعدون من قرب منهم، ومن جالسهم لا يسلم من الشر، فإما أن يتابعه علي هواه، أو يدخل الشبهة في دينه، أو عرض قلبه .

قال أبو قلابة: ((لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، وإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالاتهم ، أو يلبسوا عليكم ما تعرفون)) .

وقال ابن عباس : ((لا تجالس أهل الأهواء، فإن مجالستهم ممرضة للقلب))، وقال مجاهد: ((لا تجالسوا أهل الأهواء فإن لهم عرة كعرة الجرب)) . أي: يعدون من قرب منهم وجالسهم كما سبق .
وقال أبو الجوزاء: ((لئن تجاورني القردة والخنازير في دار، أحب إلي من أن يجاورني رجل من أهل الأهواء)) .

وصاحب الهوي إن لم يهديه الله للحق، ويشرح صدره للعلم النافع ويصره بالدليل، فإنه واقع فيما وقع به إبليس وفرعون، بحسب ما عنده من القدرة، فيطلب من الناس أن يكون شريكاً لله في الطاعة واتباع الأمر والتعظيم.

وهذا وإن لم يصرح به ولا يستطيع ذلك ؛ لكن هذا كامن في النفوس ؛ وهذه هي غاية اتباع الهوي .
قال شيخ الإسلام: ((وصاحب الهوى يعميه الهوى فلا يستحضر ما الله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى لرضى الله ورسوله ، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه ويهواه .
ويغضب إذا ما حصل ما يغضب له بهواه، ويكون منه شبهه دين: أن الذي يرضى له ويغضب له وأنه الحق وأنه الدين، وإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام، ولم يكن مقصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصده الحمية لنفسه أو طائفته أو الرياء ؛ ليعظم هو وبثني عليه، أو فعل ذلك شجاعة وطبعاً، أو لغرض من الدنيا لم يكن لله ولم يكن مجاهداً في سبيل الله، فكيف

إذا كان الذي يرى الحق والسنة هو كمنظيره معه حق وباطل وسنة وبدعة، ومع خصمه حق وباطل وسنة وبدعة)).

ومتبع الهوى لا بد أن يقوده هواه إلى الظلم والعدوان، بحسب القدرة والاستطاعة لمن خالفه ولم يوافق، وربما يعادي من له علم ودعوة إلى الله، ويقف في وجهه صادراً عن الحق، كما اليهود يفعلون ذلك، ثم تجده يرمي من خالفه بالألقاب المنفرة التي تخالف أمر الله ورسوله؛ لينفر الناس عن قبول كلامه وسماع نصائحه، وإن كان يدعو إلى السنة ويرغب فيها، يفعل ذلك كله ابتغاء الفتنة والتفرقة، ويزعم في ذلك أنه مصلح وفي سبيل المصلحة الموهوبة، وأن في ذلك دفع الفساد عن الناس ويريد لهم الخير، كما قال فرعون لقومه: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر: 26).

وهكذا تنقلب الموازين والقيم، ويصبح المفسد في نظر الناس مصلحاً، والمصلح للدين مفسداً، فيقع شر عريض، وبلاء مستطير .

يقول شيخ الإسلام ((وكثير من الناس من عنده بعض عقل وإيمان لا يطلب هذا الحد . أي يطاع أمره بحسب إمكانه . بل يطلب لنفسه ما هو عنده، فإن كان مطاعاً مسلماً طلب أن يطاع في أغراضه، وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله، ويكون في إطاعة من هواه: أحب وأعز من أطاع الله وخالف هواه. وهذه شعبة من حال فرعون وسائر المكذبين للرسول، وإن كان عالماً أو شيخاً أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره، حتى لو كان يقرأ كتاباً واحداً كالقرآن، أو يعبدون عبادة واحدة متمثلون فيها كالصلوات الخمس، فإنه يجد من يعظمه بقبول قوله والافتداء به أكثر من غيره، وربما أبغض نظيره هو واتباعه حسداً وبغياً، كما فعلت اليهود لما بعث الله رسوله محمداً ﷺ يدعو إلي مثل ما دعا إليه موسى، قال تعالي: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُنُومٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة : آية 91).

ولهذا تعلم . أخي المسلم . أن التجرد عن الهوى أصل عظيم في تقويم الرجال وأعمالهم ، وحتى توارد في الرد علي أهل البدع ، فيجب علي الإنسان أن يقصد فيه بيان الحق وهدى الخلق، وإرادة الإحسان بهم . وقال شيخ الإسلام رحمه الله مبيناً أن الرد علي أهل البدع، وإن كان في نفسه صحيحاً، ولكن إذا لم يقصده به الإنسان وجه الله ثم النصح لهم والإحسان لهم، فإن عمله مردود غير مقبول، وغيرهم لم يقصد هنا بيان الحق وهدى الخلق ورحمتهم والإحسان لهم لم يكن عمله صالحاً. فوجب عند تقويم أي إنسان أن

يقصد فيه بيان الحق، وأن يكون مصدر كلامه من العلم بالحق والهدي من الله، وأن يكون مخلصاً لله متجرداً له وغايته النصيحة لله ورسوله وإخوانه المسلمون ثم عليه قبل أن يبدأ في تقويم أي رجل أو نقده أن يفتش في قلبه ويظهره من جميع أنواع الهوى وحب الظهور؛ لكي يكون حكمه منصفاً بعيداً عن الجور والظلم المذموم، وقد قيل: ((احذروا من الناس صنفين: صاحب هوي قد فتنه هواه، وصاحب أعمته دنياه)).

ثالثاً: الحق لا يعرف بالرجال :

هذه المقولة قالها سيد العقلاء علي بن أبي طالب رضى الله عنه، حيث قال: ((لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق تعرف أهله))، والعامل ينظر دائماً الحق، ثم ينظر بعد ذلك في القول نفسه، فإن كان حقاً قبله ورضيه لنفسه سواء كان فاعله باطلاً أو محقاً، ويحرص علي انتزاع الحق ولو من لسان إبليس، فإن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها من كل أحد، فإن وجدها فهو أحق بها .

والتقليد: هو قبول رأي من لا تقوم به الحجة بلا حجة، أو هو قبول قول القائل وأنت لا تعلم من أين قاله، وهو من الآفات المهلكة، والتي لها تأثير بالغ في تاريخ البشرية والفكر الإنساني، فهو يؤدي إلى تعطيل النصوص الشرعية والعمل بها، ويؤدي إلى إهمال العقل البشري والإعمال في ميدانه، فهو آفة مهلكة، حيث أن المقدر لا ينظر إلى المشكلة المتنازع فيها إلا من خلال مقلده، فالحق ما قاله شيخه ومقلده وزعيمه، وإن خالف الدليل الواضح ولو كان الدليل من الكتاب والسنة، والباطل عنده ما خالف قول شيخه ولو دل عليه دليل أنه خلاف الحق والصواب، ولسان حال المقلد يقول الحجة مع شيخي، ولهذا فهو يلوي أعناق النصوص ويطوعها؛ لكي توافق رأيه واجتهاده، ويسخر فكره وعقله؛ لكي يحلل أقوال شيخه وقائده من أجل أن توافقه النصوص، وقد ذم الله التقليد في كتابه، وشبه أصحابه بمنزلة الأنعام التي لا تفقه ما يقال لها إنما تسمع مجرد أصوات لا تفقه ما وراءها من المعاني والبيانات والدلائل قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: 170) .

يقول ابن القيم في بيان أن التقليد مذموم محرم في دين الله : ((اتخاذ أحوال رجل بعينه بمنزلة نصوص الشارع، ولا يلتفت إلي قول من سواه، بل ولا إلي نصوص الشرع إلا إذا وافقت نصوص قوله.

فهذا والله هو الذي اجتمعت الأمة علي أنه محرم في دين الله، ولم يظهر في الأمة إلا بعد انقراض القرون الفاضلة)).

ولا أذهب بعيداً إذا ما قلت لك . أخي القارئ : أن كثيراً من النزاعات والخلافات التي تحدث بين العلماء وطلاب العلم، وكذلك الاضطراب في تقويم الرجال سببه الرئيسي هو: التعصب والتقليد لأقوال رجل بعينه، ومحاولة معرفة الحق بأقوالهم واتخاذ أقواله حجة في كل شيء ؛ لهذا نرى أن علماء الأمة ينهون طلابهم وتلاميذهم عند تقليدهم ومتابعتهم بغير برهان وحجة، وذلك لأن التقليد داء ينخر بجسم الأمة ويقضي علي جانب كبير من نشاطها وفعاليتها في ميادين العلم والمعرفة ويخلد بها إلي الكسل والعجز، وأقوال الأئمة في ذم التقليد وأهله مستفيضة أذكر لك منها ما يأتي:

قال أبو حنيفة: ((لا يحل لمن يفتي من كتبي حتى يعلم من أين قلت)) .

وقال مالك بن أنس: ((أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي فكلما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكلما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه)) .

وقال الشافعي: ((ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة رسول الله ρ وتعز عنه. فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ρ ، خلاف ما قلت: فالقول قول رسول الله ρ وهو قولي. وجعل يردد هذا الكلام)) .

وقال أحمد بن حنبل: ((من قلة علم الرجل أن يقلد دينه الرجال)) .

وإنما اخترت أقوال الأئمة الأربعة، لأن مذاهبهم وجوه في تفسير الشريعة الإسلامية، ومنافذ تطل عليها. وهي المناهج الرئيسية في البحث والفهم، وهي التي كتب لها أن تبقي بين الناس، ويرجع إليها في مسائل الفروع .

يقول شيخ الإسلام في بيان: أنه لا يجب علي كل أحد من المسلمين تقليد شخص بعينه، وأن هذا الإلزام لا تدل عليه نصوص الكتاب والسنة، وهو إلزام تنقصه الأدلة، ويعوزه البرهان العلمي، بل هو من أقوال أهل البدع والضلال.

انظر إليه وهو يقول: ((ولا يجب علي أحد من المسلمين التزام مذهب بعينه غير الرسول في كل ما يوجب ويخير به، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ρ ، واتباع شخص لمذهب بعينه ، لعجزه عن معرفة الشرع من غير جهته إنما هو مما يسوغ، ليس هو ما يجب علي كل أحد إذا أمكنه معرفة الشرع بغير ذلك الطريق ، بل كل أحد كل عليه أن يتقي الله ما استطاع، ويطلب علم ما أمر الله به ورسوله ، فيفعل المأمور ويترك المحذور . والله أعلم)) .

وبين أيضاً في موضع آخر من كتابه : ((أنه يجوز للمسلم أن ينتقل من مذهب إلي آخر، مثل أن يتبين له رجحان قول علي قول ، فيرجع إلي القول الذي يري أنه أقرب إلي معاني الكتاب والسنة ، وأن الجمود علي قوله مذهب بعينه واعتقاد أن المذاهب أو المذهب دين للإسلام ، وهو الضلال بعينه . يقول ابن تيمية:)) وكذلك فيمن يبين له في مسألة من المسائل الحق الذي بعث الله رسوله ثم عدل عنه ، فهو من أهل الذم والعقاب، وأما من كان عاجزاً عن معرفة حكم الله ورسوله، وقد اتبع فيها أحداً من أهل العلم والدين، ولم يتبين له أن قول غيره راجح من قوله ، فهو محمود مثاب . ولا يذم علي ذلك ولا يعاقب، وإن كان قادراً علي الاستدلال، ومعرفة ما هو الراجح، وتوقي بعض المسائل، ويعد ذلك من التقليد، فهو قد اختلفت بين مذهب أحمد المنصوص عنه والذي عليه أصحابه ، إن هذا إثم أيضاً...)).

رابعاً: لا يسلم من الخطأ أحد من بني آدم :

الخطأ صفة لا صفة في بني الإنسان، ولا منها من أحد ينجو منها أحد مهما بلغ مرتبة من العلم والدين، ولو نجا منها أحد لنجا منها أصحاب رسول الله ﷺ الكرام، وهم خير القرون علي وجه الأرض. ومع ذلك لم يسلم أحد منهم من الخطأ والوقوع فيه بتأويل أو غير تأويل. يقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: (كل بن آدم خطأ وخير الخطائين التوابون). والصحابة رضوان الله عليهم المعروف عنهم أنهم كانوا يسارعون للتوبة والندم والاستغفار فور وقوعهم في الذنب، ولم يعرف عن أحدهم أنه مات مصراً علي الذنب.

والسيد كما قيل من عدت هفواته وسقطاته، فهذا أقرب من غيره إلي الصواب، وقد رضي الله عنهم من فوق سبع سماوات، وشهد لهم بالخيرية والإيمان، وعلم ما في قلوبهم من الحب للإسلام والتفاني في سبيله، والمقصود أن الخطأ حتى ولو في المسائل الخيرية العلمية . لا ينجو منه أحد من البشر.

يقول شيخ الإسلام: ((فإما الصديقون والشهداء والصالحون، فليسوا بمعصومين وهذا في الذنوب المحققة . وأما ما اجتهدوا فيه فتارة يصيبون وتارة يخطئون، فإذا اجتهدوا وأصابوا فلهم أجران، وإذا اجتهدوا وأخطئوا فلهم أجر علي اجتهدهم وخطئهم مغفور لهم، وبعض المبتدعة يري أن الخطأ والإثم والذنب أمران متلازمان، فإذا أخطأ المجتهد ولو بتأويل سائغ، فإنه آثم، ولكن أهل السنة والجماعة يرون أن المجتهد مأجور، والقول قد يكون مخالف للنص الصريح وفاعله معذور، لأن المخالفة بالتأويل لم يسلم

فيها أحد من أهل العلم، يقول النبي ρ : ((إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر)) .

وهنا يبين ابن تيمية قاعدة شريفة يجب التنبيه لها: ((وهو أن ما يصدر من بعض من له علم ودين من الشاطحات والأقوال المخالفة للشرع، قد يكون مسلوب العقل أو مجتهداً مخطئاً اجتهداً قولياً أو عملياً، فلا يذم والحالة هذه، ولا يتابع عليها فيما هو مخالف لشرع الله، يقول: ((وهذا فيما يعلم من الأقوال والأفعال أنه مخالف للشرع بلا سبب، كالشاطحات المأثورة لبعض المشايخ، كقول ابن هود: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي علي جهنم. وكان الشبلي يخلق لحيته، ويمزق ثيابه حتى أدخلوه المارستان مرتين)) .

ثم قال ((جماع هذا أن هذه الأمور تعطى حقها من الكتاب والسنة في الخبر والأمر والنهي، ووجب اتباعه ولم يلتفت إلي من خالفه كائن من كان، ولم يجز اتباع أحد في خلاف ذلك، كما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة من اتباع الرسول وطاعته، وأن الرجل الذي صدر منه ذلك يعطي عذره حيث عذرتة الشريعة، بأن يكون مسلوب العقل، أو ساقط التمييز، أو مجتهداً، أو مخطئاً اجتهداً قولياً أو عملياً أو مغلوباً علي ذلك الفعل أو الترك، بحيث لا يمكنه رد ما هو فيه من الفعل المنكر بلا ذنب فعله، ولا يمكنه أداء ذلك الواجب بلا ذنب فعله، ويكون في هذا الباب نوعه محفوظاً، بل لا يتبع ما خالف الكتاب والسنة، ولا يجعل ذلك شرعاً ولا منهاجاً، بل لا سبيل إلى الله ولا شرعه إلا بما جاء به الرسول ρ .

وأما الأشخاص الذين خالفوا بعض ذلك علي الوجوه المتقدمة فيعتذرون، ولا يذمون ولا يعاقبون، فإن كل أحد من الناس فيؤخذ من قوله وأفعاله ويترك إلا رسول الله ρ .

بناء على ما تقدم في أنه لا يسلم أحد من بني آدم، فلا يذم إن كان معذوراً قد عذرتة الشريعة، ولا يتبع علي الفعل المخالف للشريعة، لأنه لا سبيل إلى الله إلا من خلال متابعة رسول الله ρ .

وهنا يفرق شيخ الإسلام بين المخالف للمسائل الاعتقادية المعلومة من الدين بالضرورة فهؤلاء ونحوهم يبين لهم الحق، فإذا عرضوا عنه وجب الإنكار عليهم بحسب ما جاءت به الشريعة من اليد واللسان والقلب. وبين المخالف للمسائل الفرعية التي هي من موارد الاجتهاد، والتي تنازع فيها أهل الأيمان والعلم، فهذه قد يكون قطيعة عند بعض من تبين له الحق فيها، لكن لا يلزم الناس بما بان له، ولم يبين لهم، فهذا قد يسلم له ويكون صاحبه معذوراً، وقد لا يسلم حاله فلا يكون معذوراً، بل آثماً، فقد تكون

هذه المسائل اجتهادية، فهذا تسليم لكل مجتهد بذل وسعه في الوصول إلي الحق، ومن قلده في ذلك وتابعه علي طريقته لا ينكر ذلك عليه .

يقول شيخ الإسلام في بيان ذلك ما نصه: ((وأما الذي لا يسلم إليه حاله إلا أن معذوراً مثل أن يعرف في أنه عاقل بقوله . يتواجد . يسقط عنه اللوم، ككثير من المنتسبة إلي الشيخ أحمد بن الرفاعي واليونسية، فيما يأتونه من المحرمات، ويتركونه من الواجبات، أو يعرف في أنه يتواجد ويتساكر من وجوه؛ ليظن به خيراً ويرفع عنه الذم فيما يقع من الأمور المنكرة، أو يعرف منه تجويز الانحراف من موجب الشريعة الحمدية، وأنه قد يتفوه بما يخالفها. وأن من الرجال من يستغني عن الرسول، أو له أن يخالفه، أو أنه يجري مع القدر المحض المخالف للدين، كما يحكي عن بعض الكذابين الضالين:

إن أهل الصفة قاتلوا النبي ρ مع الكفار لما انهزم أصحابه، وقالوا: نحن مع الله من غلب كنا معه. وأنه صبيحة الإسراء سمع منه ما جري بينه وبين ربه من المفاجآت، وأنه تواجد من السماء....، أو يسوغ لأحد بعد محمد الخروج عن شريعته، كما وسع الخضر الخروج عن أمر موسى، فإنه لم يكن مبعوثاً إليه كما بعث محمد إلي الناس كافة، فهؤلاء ونحوهم مما يخالف الشريعة، ويبين له الحق فيعرض عنه يجب الإنكار عليهم، بحسب ما جاءت به الشريعة من اليد واللسان والقلب)).

نقد ابن تيمية للمبتدعين :

بين ابن تيمية لنا من خلال ما سبق منهجاً متميزاً في نقد الرجال وجرحهم، يقوم أساسه علي تمام التثبت والدقة المتناهية في النقل عنهم، مع تمام العدل في الإنصاف في العدل في الحكم عليهم، فهو ليس من الذين تغلب عليهم العاطفة، ويدفعهم الحماس الفارغ، ولا يوجد في اليوم منهج في النقد والحكم علي الآخرين من يملك عشر معشار هذا المنهج الدقيق الواضح الذي قدمه لنا شيخ الإسلام ابن تيمية؛ وذلك من خلال ما قدمناه لك من النصوص التي التقطناها من بعض مصنفاته وكتبه، وهي قليلة جداً نسبة إلي ما كتبه الشيخ من الرسائل العديدة التي تزخر بها المكاتب الإسلامية اليوم.

ومحاور هذا المنهج الدقيق متعددة، وتفصيلها لها مكان آخر تراجع فيه مما سبق الإشارة إلي بعضها، لكن سوف أشير إلي المنهج من خلال مسألتين، يظهر لنا جلياً مدى عدالة شيخ الإسلام ابن تيمية وإنصافه حتى مع من يعاونه ويكيدون له، بل حتى مع من حاولوا قتله ورموه بالكفر والخروج عن الإسلام.

نقد المبتدعة:

أولاً: يعتمد منهجه رحمه الله علي النظر في حالة الإنسان من جهتين:

1- الضبط والإلتقان والعلم بالحق، وعلي قدر قرب الإنسان من منهج أهل السنة والجماعة، ووجهه للإسلام، بمقدار ما يقدمه للإسلام من خدمة.

2. الصدق وطلب الحق النافع وتحري الصواب في مسائل الدين والإيمان.

فإذا توافرت هاتان الصفتان في أي إنسان ولو كان قد عرف أنه تلبس ببدعة تخالف منهج السلف الكرام، فإن ذلك لا يمنعه من إيراد كلامه والاستدلال به في مواطنه، والحكم فيه بالعدل والإنصاف، وبيان ما عنده من فضائل وحسنات وعلي الرغم من شدة تحذيره من البدع وأهلها وبغضه لهم وردة عليهم، فإن ذلك لم يمنع شيخ الإسلام من الكلام فيهم بعدل وإنصاف كما عرف عنه.

يقول رحمه الله: ((والله قد أمرنا ألا نقول إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني - فضلاً عن الروافض - قولاً فيه حق أن نتركه، بل لا نرد ما فيه من باطل دون ما فيه وهذا يدل علي عظم العدل والإنصاف الذي اتصف به شيخ الإسلام في نقده للناس وجرحهم، ويدل في الوقت نفسه علي أهمية المنهج الفكري والنقدي عنده، والذي كان له الأثر البالغ في تفكيره الذي بني في نفسه هذه الاتجاهات المتزنة، ورأسي فيه الأخلاق السامية.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: ((وليس مما أمر الله به رسوله، ولا مما يرتضيه عاقل أن نقابل الحجج القوية بالمعاندة والجحد، بل قول الصدق والتزام العقل لازم عند جميع العقلاء، وأهل الإسلام أحق بذلك من غيرهم، إذ هم - والله الحمد - أكمل الناس عقولاً، وأتمهم إدراكاً، وأصحهم ديناً، وأشرفهم كتاباً، وأفضلهم نبياً، وأحسنهم شريعة)).

قد كان منهجه في الحكم علي المبتدعة باختلاف مللهم ما اقتضته الشريعة، وما يؤيده الواقع الماثل لا الأهواء الشخصية والخلفيات الحزينة الضيقة، بل كان رحمه الله يعطي كل ذي حق حقه .

فالمعتزلة أعقل فهماً وأعلم وأدين والكذب والفجور فيهم أقل منه من الرافضه، والزيدية من الشيعة خير منهم وأقرب إلي الصدق والعدل والعلم، وليس في أهل الأهواء أصدق ولا أدين من الخوارج في هذا، فأهل السنة يسمعون فيهم العدل والإنصاف ولا يظلمونهم، فإن الظلم حرم مطلقاً كما تقدم، بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم البعض، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض .

هذا بالنسبة لنقد شيخ الإسلام رحمه الله للمبتدعة من حيث الجملة، ومن حيث نقد الرجال المبتدعين والذي لهم بدعة تخالف منهج السلف، فيكفي أن تأخذ أي كتاب من كتب الشيخ فتقرأه سوف تري الحقيقة ماثلة بين يديك، وستعلم مدي علم وعدل وإنصاف الشيخ حتى مع من يعادونه وينصبون له العدا والمكيدة، وسنورد - وأخي القارئ - في نهاية البحث أمثلة تطبيقية، تعتبر بمثابة الدليل الساطع والبرهان القاطع علي عدل الشيخ وإنصافه في الحكم علي الآخرين .

ثانياً: الموازنة بين الحسنات والسيئات:

والمسألة الثانية التي يظهر لنا فيه عدل الشيخ وإنصافه في نقد الناس: الموازنة بين السلبيات والإيجابيات، وقد أكد شيخ الإسلام علي أهمية التوازن في نقد الرجال، وضرورة العدل والإنصاف مع كل أحد.

ويقول رحمه الله: ((ويعلمون - أي أهل السنة - أن جنس المتكلمين أقرب من جنس الفلاسفة، وإن كان الفلاسفة قد يصيبون أحياناً، كما أن جنس المسلمين خير من جنس أهل المكذبين، وإن كان يوجد من أهل الكتاب من له عقل وصدق وأمانة، ولا يوجد في كثير من المنتسبين إلي الإسلام، كما قال تعالي: ﴿ وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ (آل عمران: من الآية 75).

والإنسان مهما كملت رتبته في الدين ورسخ مقامه في الإسلام معرض للأخطاء، فلا يجوز أبداً أن تطرح جميع سيئاته واجتهاداته وأقواله، بل ننظر إلي كلامه وأقواله الموافقة للحق ونتقبلها، ونعرض عن أخطائه المخالفة للحق، والموازنة بين هذا وهذا عين الإنصاف، وأما مجرد تتبع الأخطاء وتصيد العثرات والغفلة عن حسنات الناس، فهو دليل واضح علي فساد النية وسوء القصد، وهناك أدلة في الكتاب والسنة تدل علي هذا المنهج القويم في نقد الناس وجرحهم - أي الموازنة بين الفضائل والسيئات - وأذكر لك دليلين فقط:

أولاً: قال تعالي في بيان صدق اليهود، وأنه يوجد فيهم من له صدق ودين: ﴿ وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً ﴾ (آل عمران: من الآية 75).

فالله يذم اليهود علي صفاتهم الخبيثة، وإن منهم من يحسد المؤمنين ويتمني لهم الضلال، وإن منهم الخونة، وإن منهم من يشتري بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، وإن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد منه، ليوهموا الجهلة أنه من كتاب الله كذلك قال آخر مما ذكره منهم من

صفات سيئة، ثم في الوقت نفسه يذكر ويبين أن بعضه له صفات جيدة مثل التزام العهد وأداء الأمانة ، وترك الخيانة وحب الصدق. وأنهم ليسوا كلهم سواء، علي حد سواء بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال بصدد ذلك: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْتُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (آل عمران: 113-114).

فبين أن منهم أمة قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه، وأنهم يقيمون الليل ويكثرون السجود ويتلون كتاب الله ويتدارسونه، ليتواصلوا إلى معرفة النبي ومتابعته وصدقه والانقياد لأمره. وهؤلاء هم المذكورين في آخر السورة في قوله تعالي: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا ﴾ آل عمران: من الآية (199).

ثانياً: قول النبي ﷺ لأبي هريرة عن الجني الخبيث الذي جاء إلي مال الصدقة يحثو منه فأمسكه بيده، وقال له: لأدفعنك إلي رسول الله ﷺ ، فقال: دعني فإن لي عيال أطعمهم، فقال: لأبي هريرة: دعني، وأعلمك آية من كتاب الله إذا قرأتها لا يزال عليك من الله حفيظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فجاء إلي رسول الله ﷺ ، وأخبره بالقصة كاملة، فقال: (أما أنه صدقك وهو كذوب، ذاك الشيطان)⁽¹⁾

فأثبت للشيطان الخبيث صفة الصدق مع أنه خلقه ودينه الكذب علي عباد الله، والمكر بهم، والتحاييل عليهم، ولا يمنع ذلك من تقبل الخبر والكلام الذي نطق به وتفوه به؛ لأن الحكمة قد تصدر من لسان الفاجر، فلا بأس بالانتفاع بها، لأن الكذاب قد يصدق والحكمة ضالة المؤمن.

يقول شيخ الإسلام: ((الشخص الواحد قد يجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب والسيئات المقتضية للعقاب، حتى يمكن أن يثاب ويعاقب، وهو قول جميع أصحاب رسول الله، وأئمة الإسلام، وأهل السنة والجماعة الذي يقولون: إنه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان)).

ثم قال بعد ذلك: ((وبين علي هذا أموراً كثيرة، ولهذا من كان معه إيمان حقيقي فلا بد أن يكون معه من هذه الأعمال بقدر إيمانه، وإن كان له ذنوب، كما روي البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً كان يسمى حماراً، وكان يضحك النبي عليه الصلاة والسلام، وكان يشرب الخمر، ويجلده النبي ﷺ ، فأتي به مرة، فقال رجل: لعنه الله ما أكثر ما يؤتي به إلي رسول الله ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : ((لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله))).

(1) البخاري..

فهذا الصحابي الجليل قد تكرر منه ارتكاب هذا المنكر البغيض والكبيرة العظمي، ولكن لا يعني هذا أنه فاسد ليس فيه خير قط، بل أنه فيه من الصفات الطيبة ما يوجب علي بقية الصحابة مولاته ومحبتة ونصرتة.

فيجب علي الإنسان أن يعرف للمحسن إحسانه وللمسيء إساءته، ثم يزن بين الأمور بميزان الحق والإنصاف، ولا يجوز أن يغلب جانب النظر إلي السيئات دون النظر إلي المحاسن والحسنات، وهذا هو الفيصل بين أهل السنة والخوارج المبتدعين، فإن الخوارج يقولون إنه لا يخرج من النار من دخلها من أهل القبلة، وأنه لا شفاعة للرسول ولا لغيره في أهل الكبائر لا قبل دخول النار ولا بعده، وعندهم أن الشخص الواحد لا يجتمع فيه الثواب والعقاب والحسنة والسيئة، بل إذ أثيب لا يعاقب ومن عوقب لا يثاب.

يقول ابن تيمية رحمه الله: ((فهذا يبين أن المذنب بالشرب . والخمر . وغيره قد يكون محباً لله ورسوله، وحب الله ورسوله أوثق عرى الإيمان، كما أن العابد الزاهد قد يكون لما في قلبه من بدعة ونفاق مسخوطاً عليه عند الله ورسوله من ذلك الوجه، كما استفاض في الصحاح وغيرهما من حيث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأبي سعيد الخدري وغيرهما عن النبي ﷺ : أنه ذكر الخوارج، فقال: (يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يتجاوز تراقبهم حتى يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، اقتلوهم أينما لقيتموهم فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد)) .

أمثلة تطبيقية في نقد الرجال وجرحهم

أولاً: من الناحية النظرية:

ذكرنا فيما سبق أن منهج ابن تيمية يعتمد علي النظر علي حال الإنسان من جهتين:

الأولي: العلم بالحق، ومعرفته وإيثاره علي الباطل بمقدار ما يقدمه من خدمة لدين الله، وبمقدار قربه من أهل السنة والجماعة.

الثانية: إخلاص الدين، وحسن النية، وتحري الصواب في مسائل الدين .

يقول ابن تيمية في هذا الصدد كلاماً نافعاً جداً: ((ثم ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساع مشكورة وحسنات مبرورة، له من الرد علي كثير من أهل الإلحاد والانتصار لكثير من أهل السنة والدين، مما لا يخفي علي من عرف أحوالهم، وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف)).

وحين يفقد الإنسان العدل والتوازن في الحكم علي الآخرين ونقدمهم تكثير الاتهامات الباطلة، وتشبع الافتراءات، حتى يصل الحد عند بعض الناس إلي أن يرمي المسلم بالابتداع، والخروج عن الدين بمجرد ما يصدر عنه هفوة غير مقصودة، أو خطأ وقع ظنه صواباً بعد اجتهاده.

يقول شيخ الإسلام: ((ومن اتبع هواه وظنه، وأخذ يشنع علي من خالفه بما وقع فيه من خطأ ظنه صواباً بعد اجتهاده، وهو من البدع؛ لمخالفته للسنة، فإنه يلزمه نظير ذلك أو أعظم أو أصغر فيمن يعظمه، وهو من أصحابه، فقل من يسلم من مثل ذلك من المتأخرين؛ لكثرة الاشتباه والاضطراب)).

وأنقل لك - أخي القارئ - نقد ابن تيمية رحمه الله لثلاثة رجال من أساطين العلم والدين، يمثل كل واحد منهم اتجاهًا معينًا ينتسب إليه طائفة من الناس، وهؤلاء الرجال هم:

أولاً: أبو الحسن الأشعري:

قال شيخ الإسلام رحمه الله في معرض نقده لأبي حسن الأشعري: ((هذا أبو حسن الأشعري نشأ في الاعتزال أربعين عاماً يناظر عليه، ثم رجع وصرح بتضليل المعتزلة، وبالغ في الرج عليهم)).

وقال أيضاً: ((ولهذا كان الأشعري وأصحابه منتسبين إلي السنة والجماعة، وكان منتحلاً للإمام أحمد ذاكراً أنه مقتد به متبعاً لسبيله، وكان بين أعيان أصحابه من الموافقة لكثير من أصحاب الإمام أحمد ما هو معروف، حتى أن أبا بكر عبد العزيز يذكر من حجج أبي الحسن من كلامه مثل ما يذكر من حجج لأصحابه ؛ لأنه كان عنده من أصحابه رأى أحمد رحمه الله ..)).

وقال أيضاً عنه في موضع آخر: ((والأشعري ابتلي بطائفتين طائفة تبغضه وطائفة تحبه، وكل منهما يكذب عليه، ويقول: إنه صنف هذه الكتب ثقية، وإظهار لموافقة أهل الحديث والسنة من الحنبلية، وهذا كذب علي الرجل، فإنه لم يوحد له قول باطن يخالف الأقوال التي أظهرها، ولا نقل ذلك عن خواص أصحابه، ولا يخرج عنه ما يناقض هذه الأقوال الموجودة في مصنفاته، فدعوى أحد في أنه: كان يطن خلاف ما يظهر. دعوى مردودة عقلاً وشرعاً، بل من تدبر كلامه في هذا الباب تبين له قطعاً أنه كان ينصر ما أظهره)).

ويقول عنه قبل رجوعه إلي مذهب أهل السنة والجماعة: ((الأشعري وأمثاله برزخ بين السلف الجهمية، وأخذوا من هؤلاء كلاماً صحيحاً ومن هؤلاء أصولاً عقلية ظنوها صحيحة، وهي فاسدة، فمن الناس من مال إليه من الجهة السلفية، ومن الناس من مال إليه من الجهة البديعية الجهمية، كأبي المعالي، ومنهم من سلك مسلكهم كعامه أصحابه)) .

ثانياً: ابن حزم الظاهري:

قال ابن تيمية في بيان حقيقته: ((وكذلك أبو محمد بن حزم فيما صنفه من الملل والنحل، وإنما يستحمد بموافقة السنة والحديث مثل ما ذكره في مسائل القدر والإرجاء ونحو ذلك، بخلاف ما انفرد به من قول في التفضيل بين الصحابة، وكذلك ما ذكره في باب الصفات، فإنه يستحمد فيه بموافقة السنة والحديث؛ لكونه يثبت الأحاديث الصحيحة، ويعظم السلف، وأئمة الحديث، ويقول: إنه موافق للإمام أحمد في مسألة القرآن الكريم وغيرها، ولا ريب أنه موافق له ولو في بعض ذلك. لكن الأشعري ونحوه أعظم موافقة للإمام أحمد بن حنبل، ومن قبله من الأئمة في القرآن الكريم والصفات، وإن كان أبو محمد ابن حزم في مسائل الإيمان والقدر أقوم من غيره، وأعلم بالحديث تعظيماً له ولأهله من غيره. ولكن قد خالط من أقوال الفلاسفة والمعتزلة في مسائل الصفات ما صدفه عن موافقة أهل الحديث في معاني مذهبهم من ذلك، فوافق هؤلاء في اللفظ وهؤلاء في المعنى.

و يمثل هذا صار يذمه من يذمه من الفقهاء والمتكلمين وعلماء الحديث باتباعه لظاهر لا باطن له، كما نفي من عبادات القلوب إلي ما في كلامه من الوقعة في الأكابر والإسراف في نفس المعاني، ودعوى متابعة الظاهر، وإن كان له من الإيمان والدين والعلوم الواسعة الكثيرة ما لا يدافعه إلا مكابر. ويوجد في كتبه من كثرة الإطلاع علي الأقوال والمعرفة بالأحوال، والتعظيم لدعائم الإسلام، ولجانب الرسالة ما لا يجتمع مثله لغيره.

فالمسألة التي يكون فيها حديث يكون جانبه فيها ظاهر الراجح، وله من التميز بين الصحيح والضعيف، والمعرفة بأحوال السلف، ما لا يكاد يقع مثله لغيره من الفقهاء)) .

ثالثاً: أبو حامد الغزالي:

قال ابن تيمية عنه: ((ونجد أبا حامد الغزالي . مع أنه له من العلم والفقهاء والنصوص والكلام والأصول وغير ذلك، مع الزهد والعبادة وحسن القصد، وتبحره في العلوم الإسلامية أكثر من أولئك . يذكر في كتاب الأربعين ونحوه كتابه ((المضمون به علي غير أهله)) . فإذا طلبت ذلك الكتاب، واعتقدت فيه

أسرار الحقائق وغاية المطالب وجدته قول الصابئة المتفلسفة بعينه. قد غير عباراتهم وترتيباتهم، ومن لم يعلم حقائق مقالات أهل الملل يعتقد أن ذلك هو السر الذي كان بين النبي ρ وأبي بكر. وأنه هو الذي يطلع عليه المكاشفون الذين أدركوا الحقائق بنور إلهي، فإن أبا حامد كثيراً ما يميل في كتبه علي ذلك النور الإلهي، وعلي ما يعتقد أنه يوجه الصوفية من إدراك الحقائق وكشفها لهم، حتى يزنوا بذلك ما ورد من الشرع.

وسبب ذلك أنه كان قد علم بذكائه وصدق طلبه ما في طريق المتكلمين والمتفلسفة من الاضطراب، وأتاه الله إيماناً مجملاً كما أخبر به عن نفسه. وصار يتشوق إلي تفصيل الجملة، فيجد في كلامه المشايخ الصوفية ما هو أقرب إلي الحق، وأولي بالتحقيق من كلامه الفلاسفة والمتكلمين والأمر كما وجده، ولكن لم يبلغه من الميراث النبوي الذي عند خاصة الأمة من العلوم والأحوال، وما وصل إليه السابقون الأولون من العلم والعبادة. حتى نالوا من الكاشفات العلمية والمعاملات العبادية ما لم ينله أولئك، فصار يعتقد أن تفصيل تلك الجملة يحصل بمجرد تلك الطريق، حيث لم عنده طريق غيرها؛ لانسداد الطريقة الخاصة السننية النبوية عنه، بما كان عنده من قلة العلم بها، ومن الشبهات التي تقلدها من المتفلسفة والمتكلمين، حتى حالوا بها بينه وبين تلك الطريقة ((.

ثم قال بعد ذلك عنه: ((ولهذا كان الشيخ (أبو عمرو بن الصلاح) يقول فيما رأيته بخطه: أبو حامد كثر القول فيه، فأما هذه الكتب . يعني المخالفة للحق . فلا يلتفت إليها، وأما الرجل فيسكت عنه، ويفوض أمره إلي الله)).

ومقصود أنه لا يذكر بسوء؛ لأن عفو الله عن الناس والمخطئ، وتوبة المذنب تأتي علي كل ذنب، وذلك من أقرب الأشياء إلي هذه وأمثاله، ولأن مغفرة الله بالحسنات منه ومن غيره، وتكفيره الذنوب بالمصائب تأتي علي محق الذنوب، فلا يقدم الإنسان علي انتفاء ذلك في حق معين إلا ببصره، لا سيما مع كثرة الإحسان، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، والقصد الحسن وهو يميل إلي الفلسفة، ولكن أظهرها في قالب التصوف والعبارات الإسلامية، ولهذا فلقد رد عليه علماء المسلمين حتى أخص أصحابه أبو بكر بن العربي، فإنه قال: شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر)).

ثانياً: ومن الناحية العملية:

السيرة الحسنة للمسلم، وأفعاله الحميدة، وصفاته العالية، وأخلاقه الزاكية، وعدله وإنصافه، لها الأثر البالغ في تصديقه والإيمان بما يدعو إليه، والانجذاب إلي كلامه، ويكون المسلم بهذا كالكتاب المفتوح يقرأ الناس

فيه أخلاقه وصفاته، لأن التأثير بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من التأثير بالمقال فقط، وقد ضرب الشيخ رحمه الله أروع الأمثلة وأصدقها في العدل والإنصاف والحكم علي الآخرين، وتمثل العدل في حياته إلى صورة حية وواقع عملي شملت الأصدقاء والأعداء علي حد سواء.

وإليك - أخي القارئ - نماذج حية من عدل الشيخ وإنصافه في نقد الآخرين والحكم عليهم أنقلها إليك من كلام المقربين إليه المجاورين له:

يقول الحافظ المحقق أبو عبد الله محمد بن عبد الهادي في كتابه ((العقود الدرية)) الذي ترجم فيه حياة الشيخ وبين مناقبه: ((وسمعت الشيخ تقي الدين ابن تيمية يذكر أن السلطان لما جلس بالشباك أخرج من جيبه فتوى لبعض الحاضرين في قتله، واستفتاه في قتل بعضهم.

قال الشيخ: فهمت مقصودة وإن عنده حنقاً شديداً عليهم، لما فعلوا وباعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، فشرعت في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، أما أنا: فهم حل من حقي ومن جهتي، وسكنت ما عنده عليهم.

قال: وكان القاضي زين الدين ابن مخلوف - قاضي المالكية - يقول بعد ذلك ما رأيت أنقي من ابن تيمية....

ثم إن الشيخ - بعد اجتماعه بالسلطان الناصر - نزل إلى القاهرة وسكن بالقرب من مشهد الحسين، وعاد إلي بث العلم ونشره، والخلق يشتغلون عليه، يقرؤون ويستفتونه ويجيبهم بالكلام والكتابة، والأمراء والأكابر والناس يترددون إليه، وفيهم من يعتذر إليه ويتنصل مما وقع، وقال: قد جمعت الكل في حل مما جري .

قال ابن عبد الهادي: ((فلما كان الرابع عشر من شهر رجب من سنة إحدى عشر وسبعمائة جاء رجل - فيما بلغنا - إلي أخيه شرف الدين، وهو في مسكنه في القاهرة فقال له: إن الجماعة بجامع مصر قد تعصبوا علي الشيخ وتفردوا به وضربوه.

فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل. وكان بغض أصحاب الشيخ جالسين عند شرف الدين، قال: فقمت من عنده، وجئت إلي مصر فوجد خلقاً كثيراً في الحسينية وغيرها رجالاً وفرساناً يسألون عن الشيخ. فجئته فوجدته بمسجد الفخر كاتب المماليك علي البحر واجتمع عنده الحسينية. ولو أمرتهم أن يهدموا مصر كلها لفعلوا، فقال لهم الشيخ: لأي شيء؟ قالوا: لأجلك.

فقال لهم: هذا ما يحل. قالوا: فهذا الذي فعل معك يحل؟ هذا شيء لا نصبر عليه. ولا بد أن نروح إليهم ونقاتلهم علي ما فعلوه. والشيخ ينهاهم ويزجرهم، فلما أكثروا في القول قال لهم: إما أن يكون الحق لي أو لكم أو لله، وإن كان الحق لي فهم في حل مني، وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني ولا تستفتوني فافعلوا ما شئتم، وإن كان الحق لله فالله يأخذ حقه إن شاء كما يشاء.

قالوا: فهذا الذي فعلوه معك هو حلال لهم؟ قال: هذا الذي فعلوه قد يكون مثابين عليه مأجورين فيه. قالوا: فتكون أنت علي الباطل وهم علي الحق؟ فإذا كنت تقول أنهم مأجورين، فاسمع منهم ووافقهم علي قولهم!

فقال لهم: ما لأحد كما تزعمون، فإنهم قد يكونوا مجتهدين مخطئين، ففعلوا ذلك باجتهادهم والمجتهد المخطئ له أجر.

فلما قال ذلك: قالوا قم واركب معنا حتى نجيء إلي القاهرة، فقال: لا، وسأل عن وقت العصر. فقيل له: أنه قريب، فقام قاصداً إلي الجامع لصلاة العصر.

فقيل له: يا سيدي، فقد تواصلوا عليك ليقتلوك، وفي الجامع يتمكنون منك. بخلاف غيره فصل حيث كان.

فأبى إلا المضي فخرج وتبعه خلق كثير لا يرجعون عنه، فضاقت الطريق بالناس، فقال بعض من كان قريباً منه: أدخل هذا المسجد. مسجد في الطريق واقعد حتى يخف الناس. لكي لا يموت أحد من الزحام، فدخل ولم يجلس فيه، ووقف وأنا معه.

فلما خف الناس خرج يطلب الجامع العتيق، فمر في طريقه علي قوم يلعبون بالشطرنج علي مسطبة بعض حوانيت الحدادين، فنفض الرقعة وقلبها فبهت الذي يلعب بها والناس من فعله ذلك. ثم مشي قاصداً الجامع، والناس يقولون: هنا يقتلونه الساعة يقتلونه! فلما وصل إلي الجامع قيل: الساعة يغلق الجامع عليه وعلي أصحابه ويقتلونهم، فدخل الجامع ودخلنا معه. فصلي ركعتين، فلما سلم منهما أذن المؤذن بالعصر، فصلى العصر. ثم افتتح بقراءة: (الحمد لله رب العالمين)، ثم تكلم في المسألة التي كانت الفتنة بسببها إلى أذان المغرب.

فخرج أتباع خصومه وهم يقولون: والله لقد كنا غلطانين في هذا الرجل بقيامنا عليه، والله الذي يقوله هو الحق، ولو تكلم هذا بغير الحق لم نمهله إلي أن يسكت، بل كنا نبادر إلي قتله، ولو كان هذا بطن

خلاف ما يظهر، لم يخف علينا، وصاروا فرقتين يخاصم بعضهم بعضاً. وقال: وروحنا مع الشيخ إلى بيت ابن عمه على البحر وبتنا عنده .

الخاتمة

بعد هذا العرض السريع لشيء من القواعد العلمية في نقد الرجال تبين لك - أخي القارئ - : أن تقييم الناس يجب أن يكون بعلم وعدل لا بجهل وظلم، وأن نقد الناس علي أساس الأهواء الشخصية والخلفيات المبنية يجعل الإنسان دائماً يميل عن الحق ميلاً واضحاً، فيجب علي من تصدي لنقد الناس والحكم عليهم أن يتحرى في نقده بيان الحق والإحسان بالخلق وإدارة الخير لهم، وأن يكون مصدر كلامه العلم بالحق والهدي من الله متجرداً له، وغايته النصح لله ورسوله وإخوانه المسلمين. وأن يفتش في قلبه ويظهره من جميع آثار الهوى المذموم، وذلك إذا أراد أن يحكم علي غيره، وبشرط أن يكون الدافع إلي ذلك شرعياً، ويتذكر دائماً أن الإنسان مهما علت مرتبته في الدين فإنه معرض للخطأ فلا يجوز أن يطرح محاسنه وفضائله، بل يوازن بين المحاسن والمساوي.

ويجعل علي المسلم أن يتق الله في ألفاظه ونقده، ويعلم أن ما يلفظه من قول إلا لديه رقيب عتيد، وأن هناك من يحصي أنفاسه وألفاظه، ولا يتكلم في أحد إلا بعلم وعدل، وليتذكر المسلم قول البخاري رحمه الله أمير المحدثين وإمام الجرح والتعديل الذي كان يخاف من الله رغم نزاهته في الحكم وعدله في نقد الناس حيث يقول: ((أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أنني اغتبت أحداً)).

يقول الذهبي: ((صدق رحمه الله ومن ينظر في كلامه في الجرح والتعديل، علم ورعه في الكلام علي الناس وإنصافه في من يضعفه. حتى أنه قال: فلان في حديثه نظر فهو متهم واه. وهذا معنى قوله: ولا يحاسبني أنني اغتبت أحداً. وهو غاية الورع...)). والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم. وسبحانك اللهم وبمحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك.